مشروع المقاومة في العراق: من مرحلة المأزق السياسي إلى مرحلة الانطلاق الوطني

05-2-2005

إن نجاح المشروع العراقي المقاوم اليوم يعتمد بشكل مباشر على ربطه بالمؤسسة المدنية أولا، لنحول المشروع من مفاهيمه العسكرية والسياسية البحتة إلى مفاهيمه كذلك الخدمية والاجتماعية، ليصبح عملية تنطلق بصورة طبيعية من قلب المجتمع واحتياجاته لتساهم بالبناء بصورة مباشرة على المستوى الفكري والثقافي والسياسي والاقتصادي

بقلم يوسف شلي

مواد ذات علاقة

ما بعد الانتخابات العراقية

يطرح مفهوم المقاومة على الدول العربية والإسلامية بشكل عام كإشكالية عدم فهم واستيعاب التغيرات الحاصلة في العالم الذي يعرف منذ أكثر من عقدين من الزمن تسلط وتجبر قوة عظمى أحادية القطب والتوجه متمثلة في الولايات المتحدة الأمريكية المهيمنة على مقدرات دول العالم وخاصة الدول العربية والإسلامية من جهة، ومقاومة متنامية تلفها إيديولوجيات مختلفة تتأرجح يمينا ويسارا، يجمعها هدف واحد ومشروع واحد متفق عليه وهو تسجيل أكبر قدر من الإيلام والجروح والنزيف في عمق الكبرياء الأمريكي من جهة أخرى ..

وفي إطار البحث عنها- أي عن المقاومة- لم تصل بعد إلى تقويم التجربة، وخاصة من جانب "إسلامية" المقاومة التي تتصدر قائمة المقاومات البارزة في العالم حاليا بحيويتها ونشاطها وجرأتها وتضحياتها وخططها، والنموذج الواضح المتجلي في عقول وقلوب ولسان العالم له أسماء واضحة لا تخرج عن كنف "المقاومة الفلسطينية" و"المقاومة العراقية" و"المقاومة الشيشانية"...، وذلك لعدم ترسب الحد الأدنى من الرصيد الصالح للتقويم.

وعليه، تبقى إشكالية المقاومة حتى في جانبه الاصطلاحي في الوطن العربي والإسلامي لا ينصرف عن البحث في مضامينها وأحوالها وشرعيتها من عدمها وأجندتها السياسية والعسكرية، أي البحث في أسباب ظهورها البارز على حساب دور وواجب الحكومات العربية والإسلامية المتخلية عن هذا الواجب كما حصل في فلسطين وأفغانستان والعراق والشيشان وسيحدث في السودان وسوريا وإيران ودول أخرى على القائمة الأمريكية والصهيونية، والوقوف على علة الفكر الجماعي العربي والإسلامي في عدم التجاوب الايجابي مع مقتضيات مرحلة الألفية الثالثة التي ستعطي للبعد "المقاوم" و"المجابه" و"المواجه" الحق في إثبات الذات، والتشبث بالقيم الإنسانية في الحرية والكرامة البشرية والحياة الشريفة.

وهكذا، تبرز حالة البحث عن غياب المقاومة في إستراتيجية البلدان العربية والإسلامية ونخبها المثقفة في السؤال التالي: كيف استطعنا أن نفهم ونعي

ونقبل تعريف العالم الغربي للمقاومة بأنها "إرهاب" و"تمرد" و"وحشية"، ونلقي بذلك بظلال الشك والريبة حولها، ونعجز- نحن العرب والمسلمين- عن تحقيق الإجماع أو الاتفاق على أن حق تقرير المصير والاستقلال والتحرر حق مشروع وأصل بشري وقانون إنساني قبل أن يكون إسلاميا لا يقبل المساومة، مما يكشف عن مفارقة عصية وصعبة وهي التعاطي الانفصامي مع مسألة المقاومة من حيث النظرية والممارسة.
وحتى لا نعالج الموضوع معالجة ميكانيكية، إسقاطيه، أي محاولة فرض مصطلح أو نظرية جاهزة عند الآخرين، نحتاج في العالم العربي والإسلامي إلى الوقوف الملي عند الحوائل والموانع التي حالت دون إدراج هذا المصطلح في قاموس قواعد اللعبة السياسية، لأن المقاومة، بمفهومها الشامل، هي أفضل آلية لتحرير الإنسان العربي والمسلم وتحقيق أفضل المجالات والقدرات والإمكانات لتساعد المجتمعات والدول على التعبير عن الذات والسعي الدائم لتلبيتها.
وربما، وفي مثل هذه الأوضاع التي تعيشها الأمة العربية والإسلامية بعد كارثة احتلال العراق، هل بالإمكان الحديث عن تأسيس "مشروع لعراق مقاوم"؟ هدفه مناهضة الاحتلال الأجنبي، رغم ما يعتقد الكثير من العرب والمسلمين عموما والعراقيين خصوصا بأن الحديث عن تأسيس أي مشروع في الوقت الحاضر مع الرهانات الموجودة سوى مشروع إقامة مؤسسات الدولة، وخاصة منها الأمنية، يكون حديث سابقا لأوانه، باعتبار أن الشأن العراقي ومن خلال الحقائق المطروحة خضع لمنظومة هائلة من المغالطات والأكاذيب الإعلامية صدقها أولا العراقي والعربي والمسلم قبل أن يصدقها وبتحفظ الأمريكي والأوروبي وباقي دول العالم ؟
* التأسيس لمشروع عراقي مقاوم:
عقبات في طريق المقاومة:
" يتميز الوضع العراقي السياسي والاقتصادي والاجتماعي.. وحتى الفكري، بأنه الوضع الأكثر تخلخلا في تاريخه المعاصر، وفي كل مفصل من المفاصل المذكورة، ولعل الشأن العراقي الراهن تحت وطأة الاحتلال الأمريكي من جهة وفي ظل غياب مؤسسات الدولة وانتشار الفوضى العارمة من جهة أخرى، أهلت ((النموذج العراقي)) لأن يكون- وبجدارة - النموذج الأعمق ضبابية في النظرة، وتحوله وعلى كافة الأصعدة إلى النموذج المفتوح لكل الاحتمالات الممكنة في عالم السياسة الجديدة؟" اهـ. مقدمة مهمة قد تلخص ما نحن بصدد ذكره في هذا المقال إستنادا إلى ورقة العمل التي قدمها الأستاذ "حميد الشاكر" بعنوان: "التأسيس لمشروع عراقي مقاوم" تناولت الوضع العراقي الراهن الذي تشوبه الكثير من العقبات تقف عائقا في سبيل تحرك "مشروع مقاوم" ذكر منها:
1- إنسان عراقي منهك.
2- خلط أوراق مخابراتي.
3- لعبة دولية قذرة على الأرض العراقية .
4- تخوف اجتماعي عراقي - عراقي داخلي بسبب مخلفات النظام السابق.
5- برامج أمريكية تخريبية لزعزعة الاستقرار والسلم الاجتماعي العراقي ونهب ثرواته الطبيعية .
6- أجندة صهيونية تحاول اللعب على التناقضات الموجودة ومحاولة اقتطاع

الجزء الأكبر من الكعكة العراقية.
إن كل ما ذكر من المحاور الست هو تأكيد للواقع الذي ينبغي دراسته وأخذه بعين الاعتبار لإجراء تقويم واقعي للمجتمع العراقي بكل شرائحه المختلفة قبل الشروع أو التفكير بأي تأسيس لأي مشروع عراقي يؤسس لنظرة أو توجه.
وأشارت الورقة إلى أن الواقعية السياسية التي يتبجح بها الكثير من السياسيين العراقيين في الداخل والخارج مع تطابق كامل مع النخب الحاكمة في الدول العربية والإسلامية، من حيث أن أمريكا قوة لا تقهر ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن تأثر فيها ضربات قلة من الناس لا يعدون على الأصابع منقطعين عن المجتمع بعيدين عن اهتماماته!! هذا التصور لا يعبر عن كل الحقيقة في المشهد العراقي بعد الاحتلال بحجة إزالة أسلحة الدمار الشامل وإسقاط الحكم الديكتاتوري ونشر الديمقراطية، لكن "إن أخذنا بعين الاعتبار موانع عدم الاستقرار الأمني في العراق اليوم وهو الوجود الأجنبي على الأرض العراقية، وبغض النظر إذا ما كان الاحتلال وأجندته السياسية هو المساهم بإيجاد وتدعيم ظاهرة العنف السياسي وعدم الاستقرار -نقول- بغض النظر عن ذالك، فإن تواجد هذه القوى الأجنبية على الأرض العراقية هو مبرر من هنا أو هناك لإنشاء مشروع مقاوم" اهـ. .
كما أن العوامل المذكورة(آنفا) كمعوقات ما هي إلا غيض من فيض، فهناك الكثير مما ينبغي على المفكرين والسياسيين العراقيين الوطنيين أن يتناولوه بالبحث ويسلطوا الأضواء على سلبياته المعيقة للعملية العراقية المقاومة، فهناك -أيضا- من العوامل ما يساهم في استمرار الوضع العراقي على ما هو عليه من فوضوية تشكل بوجه أو بآخر عملية إعاقة لمشروع الإنسان العراقي المقاوم، في انتظار قيام المخلص كما في أدبيات الفرق الأصولية المسيحية واليهودية وبعض الفرق الإسلامية المغالية.
وسجلت ورقة العمل نقطة في غاية الأهمية من حيث الواقع الحالي الذي يعيشه الشعب العراقي بكل أطيافه – بعد سقوط النظام وقبل وبعد الانتخابات- ويمارسه في واقع الحال، فنجد "أن بعض الكتل الكبيرة من الشعب العراقي أصابها تحول سياسي مفاجئ، ترى من خلاله أن حالة عدم الاستقرار السياسي والأمني في العراق أصبحت رافدا مصلحيا ونفعيا لقضاياهم المقدسة ولأحلامهم التاريخية المشروعة في إعادة التاريخ وصياغته من جديد، بإقامة دول نسيها العالم الغربي في الماضي ليعود اليوم ويشيد لهم دولهم المنسية كالكيان الكردي في العراق؟".
لا تكفي المعوقات التي تقف حائلا في سبيل تحرك "مشروع مقاوم" جاد ولا المشاريع المصلحية "الطائفية" التي تطبخ على نار هادئة في بعض الأحيان وساخنة في البعض الآخر، لتفسير التناقضات المسجلة في النسيج الاجتماعي العراقي الذي يرى شيعته بأنه مجرد "إرهاب" يقوم به فلول النظام البعثي ومجموعات سنية سلفية راديكالية تكفيرية تكن الحقد الدفين للطائفة والمذهب الشيعي، في حين يرى كرده بأنه "إرهاب دولي" جاء إلى العراق ليسوي أوراقه القديمة وحساباته مع الإدارة الأمريكية والبنتاغون من خلال الضربات اليومية المسجلة ضد الجيش الأمريكي المتمركز هناك، أما سنته فمنقسمون بين مناصرة المقاومة العراقية النابعة من أرض العراق

وبأيدي العراقيين ومعاداة للجماعات الرافدة من الخارج من أجل الجهاد في العراق، مع السكوت عنها اتقاء "شرها" كما جاء على لسان أحد علماء الهيئة.. لكن يبقى أن هناك "عوامل إقليمية ودولية تكتنفها تعقيدات وتداخلات أكثر ضبابية من الشأن العراقي الداخلي، فهناك -كمثال– الأجندة النفعية لقوى الاحتلال الأمريكية والتي تحاول بشتى السبل خلط الأوراق على الأرض العراقية وإعادة تنظيمها بصورة ميكانيكية مستمرة من جهة، والاستفادة القصوى من كل التناقضات العراقية -العراقية والعراقية– الإقليمية والعراقية- الدولية ..، فالتناقضات الإقليمية لدول الجوار العراقي وما تحمله من سياسيات متضاربة وأساليب متنافرة.. تنعكس بكل ثقلها السلبي على الأرض العراقية لإرباك كل حركة عراقية داخلية تستهدف إعادة تنظيم الشأن العراقي، فمن جمهورية إيران الإسلامية وسياساتها المتناقضة إلى حد اللعنة مع الإدارة الأمريكية والتي تمثل سلطة الإدارة للدولة العراقية اليوم.. إلى المملكة الأردنية الهاشمية وجمهورية تركيا وموالاتها للإدارة الأمريكية..، فكل هذا الوضع الإقليمي المتنافر يجد متنفسه وانعكاساته الطبيعية داخل الجغرافية العراقية المستباحة"؟.

كل هذه العقبات وغيرها -حقيقة- هي التي تلعب دور التغييب لأي مشروع عراقي مقاوم من الولادة الحقيقية أو الاستمرار في الحياة، كما أنها أسباب وعوامل تجعل من معادلة (إنشاء مشروع مقاوم) شبه مشروع مؤجل في ذهنية الإنسان العراقي لأجل غير مسمى أو لأجل ما بعد إقامة مؤسسات الدولة العراقية والتي تحاول قوى الاحتلال تفريغها من المحتوى الكامل لدولة عراقية تحضي بالسيادة الكاملة؟.

ولكن ورغم كل ما ذكر من معوقات وعقبات تقف حائلا أو لنقل سدا منيعا من إنشاء "مشروع مقاوم عراقي"، فهل بالإمكان الجزم بأنه لا أمل في التفكير بهذا المشروع المخلص للعراق؟

أو بصورة أخرى من التساؤل: هل هناك أي صلة معيقة بين كم الخطط الهائلة التي رُصدت للعراق وبين التفكير بإنشاء "مشروع عراقي مقاوم" لحماية العراق من هذه الكارثية السياسية المعاصرة التي يواجهها الشعب العراقي؟

وهل وصل الحال بالعراق إلى انقسام لا مفر منه بين شرائح المجتمع العراقي الذي أصابه عدوى "الخضوع" و"الخنوع" و"الاستكانة" بعد التجارب الأليمة التي كانت في عهود نظام صدام حسين في انتفاضات الجنوب والأنفال وحلبجة وغيرها؟

وللاستدلال على أن إيجاد "مشروع مقاوم عراقي" قابل للتحقيق على الأقل من الناحية الفكرية ابتداء، يرى حميد الشاكر صاحب الورقة أنه "عندما تتعرض أمة من الأمم أو شعب من الشعوب إلى محاولة تغييب وتغريب فكري وثقافي وتراثي ونفسي وروحي يستهدف من وراء هذه العملية أو المحاولة انسلاخ هذه الأمة من واقعها الفكري والثقافي أو العقائدي أو على أقل التقدير النظر إلى محتواها العقائدي والفكري والثقافي والتراثي .. على أساس أنه المحتوى الأكثر دونية أو حقارة أو غير المستحق للاحترام والتقديس المطلوب.. ومن ثم التفكير بتغيير الانتماء أو البحث عن النموذج الأكثر بريقا عقائديا أو فكريا أو تراثيا.. في هذه الحال تبرز روح المقاومة الفكرية لهذه الأمة المستهدفة بالغزو الثقافي لتعلن

حقائق الحال: إن العملية برمتها عملية سياسية تستخدم الأدوات الفكرية إعلاميا لغزو الفكر وزعزعة النفوس وتهيئتها نفسيا لتقبل الاحتلال أو الإحلال أو الغزو العسكري للسيطرة والهيمنة على مقدرات الأمة وتحويلها إلى مفردة نفعية فحسب .؟ وعند ذاك يشعر المفكر المحلي والمثقف صاحب الأصالة والعالم الشجاع والمنتمي لتراث الأمة بأن مسؤوليته قد آن أوانها، وإنه مسئول عن وجود أمة بكل مقدراتها الفكرية والعقائدية والسياسية والاقتصادية والإنسانية .. وإنه مسئول عن البحث وإنشاء روح المقاومة الفكرية لهذه الأمة، من منطلق أن الفكر والثقافة والعقيدة والتراث.. هو البوابة الموصدة والتي تقف عائقا بوجه الأطماع السياسية الخارجية والتي تحاول دائما البحث في شتى الوسائل لتهيئة الأرضية أو المقدمات الفكرية والنفسية والروحية لزحفه المصيري على الآخر المستعد للسقوط أمام محاولاته التوسعية".

إن المقاومة جزء لا يتجزأ من فطرة القوانين الكونية والإنسانية، وسنة من سنن وقوانين الحياة التاريخية، كما أن مفهوم المقاومة يحمل مسؤوليته طيف من التنوعات الفكرية والعقائدية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية.. ليشتركوا جميعا في تبني مفهوم المقاومة، بعد أن يدرك الجميع أن مفهوم المقاومة هو مشروع (حماية) طبيعية تستهدف حماية الأمة والأرض والخبز والكرامة الإنسانية، من مطامع القوى الخارجية.

* كيف نصل إلى تحديد وظيفة "العمل العراقي المقاوم":

"إن الوصول إلى تحديد مفهوم ووظيفة العمل العراقي المقاوم، يوصلنا إلى التفكير حول الآليات التي بإمكانها إقامة المؤسسات التي تحول المشروع المقاوم من فرضيات المفاهيم الفكرية إلى حقائق الواقع العملي الذي يتحرك فيه ومن خلاله المشروع المقاوم، وينبغي لفت النظر بقوة والتأكيد على أن نجاح المشروع العراقي المقاوم اليوم يعتمد بشكل مباشر على ربطه بالمؤسسة المدنية أولا، لنحول المشروع من مفاهيمه العسكرية والسياسية البحتة إلى مفاهيمه كذلك الخدمية والاجتماعية، ليصبح عملية تنطلق بصورة طبيعية من قلب المجتمع واحتياجاته لتساهم بالبناء بصورة مباشرة على المستوى الفكري والثقافي والسياسي والاقتصادي ... الخ وبعد ذالك يأتي دور المؤسسة المدنية المقاومة (بالإضافة طبعا للعسكرية التي ستكون دعما محتملا للدولة في حال تعرضها للغزو الأجنبي) وعلى رأس هذه المؤسسات المدنية، المسجد والمدرسة والمنتدى ودور النشر ودور العمل الخيري وما امتدت إليه أسماء المؤسسة المدنية كالتنظيمات الحزبية والخدمية ... الخ.؟

إن شعور هذه المؤسسات المدنية، وهي تنظر للمشروع العراقي المقاوم على أساس أنه المشروع الذي يستهدف حماية الأمة والدولة والثروة العراقية، سيوفر الكثير من الجهد لإقناع الثقل الأكبر للانخراط في العمل المقاوم، وبمختلف الأساليب المقاومة ثقافيا أو اقتصاديا خدميا أو سياسيا تنظيميا كما أنه سيضع المترددين أو المعارضين للعمل العراقي المقاوم لسبب أو لآخر في زاوية محرجة جدا ستوفر على العمل المقاوم عدم تشويش هذه الكوادر النفعية على التجربة المقاومة؟ إن بناء مقاومة عراقية أو إنشاء هيكلية تنظيمية عراقية مقاومة بشكل أو بآخر في ظل الظروف العالمية الجديد ة، لم يعد مجرد ضرورة وطنية لهذه الدولة التي فقدت

سيادتها وامتهنت كرامة جغرافيتها وصودرت مواردها وارتهنت إرادتها بيد قوى التوسع الاستعمارية كالعراق مثلا فحسب، بل أصبح بناء مشروع المقاومة موضوعة دولية عامة تنظر لها كل دول العالم الصغيرة والكبيرة على أساس أنها ضرورة حضارية لكل شعب وأمة ودولة تستهدف الحفاظ على وجودها على أرض العالم وخريطة التاريخ الحديث، فكل دولة وأمة وحتى من تسمى بالعظمى تسعى لبناء مشاريع حماية مقاومة داخلية وخارجية وبمختلف الأساليب الفكرية والعقائدية والثقافية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، للحفاظ على تماسكها الاقتصادي والاجتماعي الداخلي من خطر الانهيار المعنوي والمادي أمام تحديات العالم العولمي الجديد"؟

* روح المقاومة جذوة لا تنطفئ مهما طال الزمان :

"إن روح المقاومة وإرادتها الراسخة وحقيقة أن يكون الإنسان العراقي مقاوما هي من أهلت النموذج العراقي لأن يصنع عشر حضارات على الأرض، كما أنها هي التي صبغت شخصية الإنسان العراقي بروح التحدي المثير الطبيعي لبقاء الحضارات على قيد الحياة؟

إن المقاومة هي خيار الإنسان العراقي، وحتى إن سلمنا بكون الإنسان العراقي مستعدا للصمت الطويل والانتظار الممل، والسكون المريب... فظفن صمته وانتظاره وسكونه مقاومة، أو هي جذوة تخبو ولكن لا تنطفئ؟ إن أشد ما يقلق أعداء الحضارات وممتهني اللصوصية السياسية وتجار العبيد من مستعمرين وناهبي ثروات الأمم، أشد ما يقلقهم أن تكون أمة أو شعب أو إنسان يحمل أرادة مقاومة، لذالك تسعى هذه القوى المهيمنة وصاحبة النفوذ التوسعي، إلى قتل هذه الروح المقاومة وبكل أسلوب وجد للتخلص من العقبة الحقيقية التي تقف أمام أطماع هذه القوى الجشعة، فمن ماكينة الإعلام العالمية، مرورا بتوظيف رؤوس الأموال العملاقة، وحتى الضرب والاحتلال العسكري، كل هذا الكم الهائل يوظف لقتل روح المقاومة لدى هذا الشعب أو ذاك أو هذا الإنسان أو ذاك ليسهل بعد ذالك الوصول إلى كل الأهداف التوسعية لهذه الكتلة من مصاصي الدماء أو تلك من تجار الجماجم في الدول العظمى الحديثة"؟

أخيرا، هل سيحقق "المشروع المقاوم العراقي" أهدافه وقد بدأ يضع رجليه في الساحة العراقية رغم الضبابية التي تحيط به؟ وهل باستطاعة هذه المقاومة تحقيق الانتصار عند استيعاب كل مضامين الطيف العراقي المتشتت والفوز على أكبر قوة عرفها التاريخ، كما فعل الأجداد وهزموا أكبر قوة عظمي آنذاك في ثورة العشرين وهي بريطانيا العظمي التي كانت لا تغيب عنها الشمس؟